المحاضرة الثانية: معالم علم النفس النمو: الأبعاد والتطورات

تمهيد:

علم النفس النمو هو أحد أهم فروع علم النفس، حيث يركز على دراسة تطور الإنسان وتطويره النفسي والسلوكي عبر مراحل مختلفة من العمر، بدءًا من مرحلة الطفولة. سنتناول في هذا السياق التاريخ والتطور الذي لحق علم النفس النمو كميدان معرفي مستقل. كما سنسلط الضوء على أهميته في فهم سلوك الإنسان واحتياجاته النفسية التي تشكل إطارًا لهذا الفرع ضمن ميدان الدراسات النفسية الحديثة.

1- موضوع علم النفس النمو: التطور وإشكالية المصطلح

يسمح التفكير الإبستمولوجي بتبرير أهمية مجال بحث معين وتحديد القيود المتأصلة في تقدم العلم والمعرفة. فيما يتعلق بسيكولوجيا النمو، يمكن أولاً أن نرى وجودها في سياق أوسع داخل ميدان علم النفس، حيث تهدف إلى دراسة السلوك بغرض استخلاص القوانين أو مبادئ العمليات الذهنية والتغييرات .وهكذا، يمكن مشاركة موضوع علم النفس العام والمناهج التي تعنى به في نفس السياق الذي يتبعه علم نفس النمو، والذي يُعَتَبَر واحدًا من أهم تخصصات علم النفس. بالإضافة إلى ذلك، يمكن التعرف على ميزاته الخاصة المتشابهة مع تخصصات أخرى مثل علم النفس المرضي وعلم النفس الاجتماعي. لكي نبدأ في التفكير الإبستمولوجي، يجب علينا أولاً تحديد موضوع علم النفس النمائي، مما يتيح لنا توجيه نظرة موجزة على النهج المنهجي، وثم إلقاء نظرة على بعض التطورات التاريخية لهذا المجال.

يُعد علم نفس النمو أحد المجالات المهمة في علم النفس، إذ يختص بدراسة التغيّرات النفسية والسلوكية التي يمرّ بها الإنسان خلال مراحل نموّه المختلفة، بدءًا من الطفولة وحتى الشيخوخة.

نشأ علم نفس النمو كتخصص مستقل في أوائل القرن العشرين، عندما قام العالم النفسي الأمريكي ستانلي هول بنشر أول الدراسات التي تناولت النمو النفسي عند الأطفال، مما مهّد الطريق أمام ظهور هذا المجال العلمي الهام.

وتبع ذلك ظهور مجموعة من النظريات والدراسات التي أسست لعلم نفس النمو، فقد ركّز كل من جان بياجيه وسيغموند فرويد على النمو المعرفي والعقلي عند الأطفال، في حين اهتم إريك إريكسون بالنمو النفسي الاجتماعي، أما علماء آخرون فربطوا بين النمو ونظريات التعلم.

ويهدف علم نفس النمو إلى فهم العمليات النفسية وراء نمو الإنسان وتطوره عبر مراحل حياته المختلفة، فهو يحاول تفسير التغيرات السلوكية والمعرفية والانفعالية التي يمر بها الفرد منذ الطفولة حتى مرحلة الشيخوخة. كما يدرس العوامل الوراثية والبيئية المؤثرة في ذلك النمو.

وقد أسهم علم نفس النمو إسهامات كبيرة في مجالات متنوعة، فهو يوفر فهمًا أفضل لكيفية تطور السلوك والشخصية، كما ساعد على تطوير أساليب تربوية وتعليمية تتناسب مع المراحل النمائية المختلفة، بالإضافة إلى دوره في تشخيص وعلاج الاضطرابات النفسية.

يسعى علم النفس النمو إلى توفير فهم عميق وشامل لسلوك الإنسان واحتياجاته وفقًا لعمره، مما يسهم في وضع استراتيجيات تربوية وعلاجية وتوجيهية أكثر فاعلية تتناسب مع كل مرحلة عمرية (3). كما ساعد على تطوير أدوات تشخيص وعلاج الاضطرابات النفسية

لدى الأطفال مثل اضطرابات التعلم والاضطرابات النمائية مثل التوحد وفرط الحركة وضعف الانتباه (4).

لذا يُعد علم النفس النمو حقلاً حيويًا وفريدًا في علم النفس، إذ يركز بعمق على البعد الزمني للتغيرات النفسية التي يشهدها الإنسان عبر مسار حياته بأكمله.

تُمَكِّن دراسة ظواهر النمو من تحقيق مجموعة من الأهداف البحثية والعلمية:

1. فهم العمليات النمائية: تهدف دراسة ظواهر النمو إلى التفحص والتفاعل مع التغيرات الجسدية والعقلية والاجتماعية التي يخضع لها الإنسان منذ ولادته وحتى بلوغه.
2. تحليل العوامل المؤثرة: ترمي هذه الدراسات إلى تحديد وتقدير الأثر الذي تمارسه عوامل متعددة، سواء كانت جينية أو بيئية أو ثقافية، على عمليات النمو. ذلك يساعد في توجيه الفهم نحو تأثير البيئة والوراثة على تطور الفرد.
3. توجيه السياسات والتدخل: تهدف دراسة النمو إلى توجيه الجهود نحو تطوير سياسات عامة واستراتيجيات تدخلية تساهم في تعزيز النمو الصحي والمثالي للأفراد. وتوفير استراتيجيات للتدخل والمعالجة في حالات التأخر أو المشاكل في عمليات النمو.
4. تحسين الأنظمة التعليمية: تُشجِّع الأبحاث في مجال النمو على دعم تطوير الأنظمة التعليمية وتصميم مناهج تعليمية تتوافق مع مراحل نمو الطلاب.
5. فهم الاضطرابات النفسية: تساعد دراسة ظواهر النمو على فهم والتصدي لظواهر مثل التنمر والعدوانية ... والاضطرابات النفسية التي يمكن أن تؤثر سلبًا على تطور الأفراد خلال مراحل نموهم.
6. دعم سياسات الصحة العامة: توفر الأبحاث المتخصصة في مجال النمو معلومات ذات أهمية كبيرة لصياغة وتنفيذ سياسات صحة عامة تستهدف الشباب والبالغين.
7. تطوير النظريات والمفاهيم: تُسهِم الأبحاث في مجال النمو في تطوير النظريات والمفاهيم المتعلقة بالتطور البشري والنمو النفسي والاجتماعي.

تعتبر دراسة ظواهر النمو جزءًا حيويًا من علم النفس وتلعب دورًا أساسيًا في فهم العمليات التنموية والسعي نحو تحقيق التنمية الإيجابية والصحية للأفراد.

من بين الأهداف الأساسية التي تراهن عليها مسألة دراسة ظواهر النمو المعاصرة، هي أن الاشتغال الحالي للفرد يعتمد على مجموعة من الخبرات السابقة وآليات التكيف بينها وبين المعرفة الجديدة التي تم تكوينها نتيجة للظروف الاجتماعية والبيئية التي تتحكم في مسار تطور الشخص. ومن هذا المنطلق، يمكن تعريف سيكولوجيا النمو كتخصص يدرس تطور الفرد خلال مراحل مختلفة في حياته، ابتداءً من الفترة الجنينية وصولاً إلى مرحلة البلوغ والشيخوخة. لقد تمت مناقشة هذا النهج المعروف باسم "دراسة مسار الحياة بكاملها" في السبعينات من القرن العشرين، وهذه المناقشة مستمرة حتى الوقت الحالي. ومع ذلك، يتبين

من هذا النهج البديهي والمفهوم لسيكولوجيا النمو سلسلة من الملاحظات التي يتعين مراعاتها.

أولاً، من الناحية القانونية، يبدو أن إمكانية دراسة "حياة بكاملها" قد تكون غير ممكنة في الوقت الحالي. في الواقع، يتمحور البحث التطوري عادة حول فترة الطفولة والمراهقة. بالإضافة إلى ذلك، يكون مفهوم سن الرشد غير متوافق بشكل كبير مع هذا النوع من الدراسات بسبب التنوع الكبير في مسارات الأفراد وأهدافهم المتنوعة. علاوة على ذلك، يصعب بشكل كبير مقارنة آليات الشيخوخة مع آليات بناء الذات خلال مرحلة الطفولة والمراهقة، وهذا ينطوي على تصور التراجع النفسي involution الذي هو عكس للتطور والنمو. بناءً على هذه الملاحظات، يتم التركيز بشكل رئيسي على فترة الطفولة والمراهقة. (للاطلاع على موجز للعمل في علم النفس الشيخوخة، انظر Fontaine فونتين، 1999).

ثانيًا، من الناحية الابستيمولوجية والمنهجية، يجب التأكيد على أن النمو، مثل أي تطور آخر، لا يمكن أن يتجلى مباشرة من خلال الملاحظة ("هل رأيت يوماً طفلاً ينمو؟"). بدلاً من ذلك، الهدف الرئيسي ليس هو تحليل النمو في حد ذاته، إنما هو تحليل الاختلافات السلوكية التي يمكن إثباتها من خلال المقارنات. وهذا يشمل المقارنة بين الأفراد بناءً على العوامل مثل العمر، السياقات، والقيود. الهدف المباشر لعلم نفس النمو هو تحليل الاختلافات السلوكية التي يمكن إثباتها، مما يجبرنا على إعادة التفكير في الأهداف من خلال الأساليب المستخدمة التي تساهم في إنتاج هذه الاختلافات.

2- اصطلاحات علم النفس النمو.

لم ينشأ علم نفس النمو كحقل مستقل إلا في أوائل القرن العشرين، حيث كانت بدايات هذا العلم مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالثورة الصناعية (1760م - 1830م تقريباً) وما صاحبها من تغيرات اجتماعية واقتصادية، إذ أدت هذه التغيرات إلى زيادة الاهتمام بتعليم الأطفال ورعايتهم.

ففي بداية الأمر، ركز علماء نفس النمو على دراسة مرحلة الطفولة بشكل أساسي، وكانت أبحاثهم تتمحور حول كيفية نمو الأطفال العقلي والمعرفي واللغوي. وقد ساهمت أعمال رواد علم النفس النمو مثل جان بياجيه ولف فيجوتسكي في تشكيل الأسس النظرية والمنهجية لهذا المجال الحديث نسبياً آنذاك.

لكن مع مرور الوقت، توسع نطاق علم نفس النمو ليشمل دراسة التغيرات النمائية عبر جميع مراحل العمر، وأصبح من المجالات المزدهرة والحيوية في علم النفس المعاصر.

يُعد العالم الألماني فيلهلم برييِر Wilhelm Preyer أحد رواد علم نفس النمو، ففي عام 1822م نشر كتابه "عقل الطفل" The Mind of the Child حيث قام بتوثيق ملاحظاته لنمو وتطور ابنته شارلوت منذ ولادتها وحتى بلوغها عمر السنتين ونصف. ويُعد هذا الكتاب من أوائل الدراسات المنظمة لملاحظة وتسجيل التغيرات والنمو عند الأطفال، حيث ركز برييِر على الجوانب المعرفية واللغوية والحسية والحركية.

وقد أظهرت ملاحظات برييِر أن نمو الطفل يمر بمراحل منتظمة ومتسلسلة، وأن هناك عوامل وراثية تؤثر على النمو، بالإضافة إلى أهمية البيئة والتفاعلات الاجتماعية. لذلك يُعتبر كتاب "عقل الطفل" بمثابة النواة التي تطور منها علم نفس النمو لاحقاً، ولا يزال يُدرس حتى اليوم كأحد الأعمال الرائدة والمؤسسة في هذا المجال.

في عام 1877م نشر عالم الأحياء الشهير تشارلز داروين ورقة بحثية قصيرة بعنوان "ملاحظة على تطور بعض صفات العقل لدى طفل" A Biographical Sketch of an Infant، وقد استند داروين في هذه الورقة البحثية إلى ملاحظاته الدقيقة لابنه "دودي" خلال الأشهر الأولى من عمره، حيث سجّل تطور مهاراته الحركية والمعرفية والاجتماعية منذ الولادة.

وتعتبر هذه الدراسة أول بحث تجريبي في مجال علم نفس النمو، حيث طبّق داروين منهجية الملاحظة العلمية الدقيقة لوصف وتحليل نمو الرضع، وساهمت أبحاثه في تشكيل الأسس الأولى لهذا العلم النفسي المتخصص..

شهد علم النفس النمو تطوراً كبيراً مع مرور الوقت ليتعدى الاهتمام بالنمو المعرفي والجسدي للطفل فقط.

ويمكن تلخيص أبرز التطورات والتوسعات في مجال علم النفس النمو على النحو التالي:

- دراسة النمو الانفعالي والعاطفي من حيث المشاعر والدوافع وتكوين الشخصية.
- الاهتمام بالتغيرات الاجتماعية والعلاقات مع الآخرين عبر المراحل العمرية المختلفة.
- دراسة النمو الأخلاقي والقيمي والسلوك الاجتماعي.
- التركيز على الفروق الفردية والثقافية في أنماط النمو.

- تتبع مسارات النمو عبر مراحل الحياة كلها من الطفولة إلى المراهقة إلى الرشد.
- اعتماد مناهج بحثية متقدمة مثل التصوير العصبي والدراسات الوراثية.
- الاهتمام بتأثير البيئة الاجتماعية والثقافية على النمو البشري.

- كان يُطلق على علم نفس النمو في السابق اسم "علم النفس التكويني" (la psychologie génétique)، ولا يزال هذا المصطلح مستخدمًا إلى الآن في بعض الأوساط.
- مصطلح "التكوينية" يشير إلى "الأصل أو البزوغ" وليس إلى "الجينات"، على الرغم من أن دراسة تأثير الجينات على نمو الفرد تدخل ضمن اهتمامات علم النفس التكويني.
- تم تغيير اسم علم النفس التكويني إلى "علم نفس النمو" لتجنب الالتباس مع مصطلح "التكوينية" الذي أصبح مرتبطًا بعلم الوراثة، وذلك نتيجة الدعاية الإعلامية حول الجينات.
- إذًا الاسم القديم كان يشير إلى نشأة وتطور السلوك النفسي للفرد، بينما أصبح المصطلح الجديد "علم نفس النمو" أكثر دقةً للإشارة إلى هذا المجال.

الانتقال من الحديث عن علم النفس التكويني إلى الحديث عن علم النفس النموي يمكن أن يكون سلسًا، حيث يمكن للباحثين أن يستكشفوا كيف تؤثر العمليات التي تحدث في مراحل معينة من الحياة على التطور على مدى الحياة .[132]على سبيل المثال، قد يدرس الباحثون كيف يمكن للتجارب التي يمر بها الأطفال أن تؤثر على تطورهم العاطفي والاجتماعي في وقت لاحق[1].

علم النفس التكويني، وهو مصطلح اقترحه جان بياجيه، يركز على الجانب التطوري للسلوك، أي على تكوينها. يهتم بتكون المهارات النفسية عند الأطفال كوسيلة أساسية للوصول إلى فهم أفضل لخصائص هذه المهارات وكيفية اشتغالها عند الراشد، وذلك لأن دراسة هذه المهارات عند الراشد بشكل مباشر هو أمر في غاية التعقيد. بهذا المعنى فإن دراسة النمو هي كذلك وسيلة لفهم أفضل للوظائف fonctions النفسية العامة المستوحاة من علم النفس العام (التعلم والذاكرة، والعواطف émotion، والإدراك، واللغة، والتمثل الاجتماعي، والهوية، الخ...).

من ناحية أخرى، علم النفس النمو هو حاليا المصطلح الأكثر شيوعا. مقارنة بعلم النفس التكويني، حيث يتعلق الهدف من علم النفس النمو بتحليل التغييرات ودراسة العديد من العوامل والتفاعلات التي تتدخل في التطور. لا يقتصر على التغييرات التي تحدث أثناء الطفولة ولكنه يهتم بجميع التغييرات التي تحدث منذ الحمل حتى نهاية الحياة.

وبالتالي، فإن الانتقال من علم النفس التكويني إلى علم النفس النمو كان مدفوعًا بالرغبة في تجنب الغموض في المصطلح الوراثي، بين التكوين كعملية نمو الفرد، والوحدة المادية للنقل البيولوجي

مراجع:

-1Kaplan, P. S. (2004). Child and adolescent development. Thousand Oaks, CA: Sage Publications .

-2Siegler, R., DeLoache, J., & Eisenberg, N. (2011). How children develop. New York, NY: Worth Publishers.

-3Shaffer, D.R., & Kipp, K. (2014). Developmental psychology: Childhood and adolescence (9th ed.). Belmont, CA: Wadsworth .

-4Comer, R.J. (2016). Abnormal psychology (9th ed.). New York, NY: Worth Publishers.